باب الرحمة

ليل ونهار وصراخها المفجوع يشق جدار القسوة الباسط قبضته عليها بلا رحمة، يتسلل عبر الجدران ملهوفاً مهوساً يبحث عمن يلبى إغاثتها، وينفذها من هذا المصير المحتوم والمفروض عليها، ولكنه يرتد في يأس، فيعود ويزداد علواً في صخبٍ وجنون يستنجد بعباد الله أن تنقذها من هذا الموت الناشب مخالبه في جسدها الصغير !! ويخرجها من هذا الأسر المفروض عليها بلا ذنبٍ اقترفته !! فقد حكم عليها أبوها الفار من فعلته النكراء بطعن الأم، وسك الباب عليها بلا فكرٍ كيف ستواجه ذات الشهرين هذا المصير وهي لا تقدر أن تتحمل تبعات الفعلة النكراء وتحييا في هذا الكون بلا راعٍ !!

يومان مرا عليها وهي بجوار الجسد المضرج في دمائه، واللافظ أنفاسه من يومين، يعتصر الجوع الفتاك معدتها الخاوية، فتئن فى نحيبٍ مهووس تستعطف شفقة أهل الإنسانية، لتلبي أغاثتها في تواصل ليل نهار !! فهل يلتفت

إليها أحد الجيران ويُسائل نفسه ما الذي يدفعها لهذا الصراخ المتواصل لفتراتٍ طويلة ؟!! وأين الأم لتلقمها ثديها وتملأ معدتها الخاوية حتى تشبع وتنام ؟!! ألا يوجد من أهل الشفقة من يسأل نفسه، ليعرف سر بكائها المتواصل كي ينقذها من هذا الأسر !! يتواصل صرختها حتى يغلبها الوهن فتنام لفترة قصيرة، وتستيقظ على جوعٍ فتاك فتصرخ في هوسٍ وجنون ؛ لعل القدر يبعث لها يد الرحمة وينقذها الإنسان !! ولكن يا الله فالكل من حولك مشغولٌ في دنياه، فلا تجد من يحن لبراءتها !! وينقذها من تلك الوحدة وهذه الميتة الباسطة قبضتها عليها، والغافلة عن محنتها، وعن صرختها الفزعة في تواصل بلا انقطاع ؟!!

يا الله لا يوجد إلا الصمت، وجيران لا يدفعهم فضول أو يحركهم تساؤل :»ما الذي يدفع تلك المسكينة لكل هذا البكاء !!» يا الله أمٌ مذبوحة بجوارها لفظت أنفاسها من عدة أيام !!

فمن يرحم تلك المسكينة ويخرجها من هذا الأسر !! ومن يحكم على هذا الجانى الذي لم يتورع عن قتل براءتها، صمت أذناه بأن تستمع لتلك الآم المذبوحة توسلها بأن يعلن للعالم أن الطفلة جاءت من صلبه، أغمد خنجر غدره فى قلب الأم، وترك وليدتها تصرخ مفزوعة بجوارها، وتخبط مذعوراً يفر من البيت، ويغلق بقسوة وجحود باب الرحمة

عليها ويفر !! يفر من جرمه فرار الخسة، فرار الهارب من آدميته بأن تحملها يداه، وتضعها على عتبة بيت من بيوت الله ! أو فوق رصيف أو ملجأ يرعاها حتى تكبر، وتعتمد على ذاتها ويكون لها حياة ! فهل هذا آدميٌ مثلي ومثلك يرأف بوليده ؟! هل هذا إنسان يشعر بأن لغيره حياة، وخطُاً مرسوماً فيه السير إلى منتهاه ؟!

وهل عرفت تلك الجيرة أن من يقطن حوله له حقٌ عنده من ألفة ويشد من أزره في الشدة، ويلبى نداه حين يداهمه الخطر ويحدق به ويغيثه في بلواه !! فلماذا لم يندهشوا لصراخها المتواصل ليلُ ونهار !! ولماذا لم تتحرك غريزتهم ليلبوا نداءها وتطرق أيديهم باب الرحمة المنغلق عليها، ويلبوا إغاثتها، يا الله لقد طغت المادة عليهم وأصبح كلٌّ واحدٌ فيهم منغلقاً على دنياه !! لا يسمع إلا صخب حياته، وضجيج همومه اليومية، وسياجاً تعزله عن الناس ! فلماذا يهتمون أو تتساءل أنفسهم عن سر صراخها المتواصل ليل نهار ؟! وتحركهم نخوتهم في فضولٍ، تبحث عن سر صراخها المتواصل !! وتشملها رأفة جارٍ طيب يعرف حق الجيرة، وينقذها من هذا الموت الناشب مخالبه في هذا الجسد الواهن من جوعٍ فتاك، الصوت يتحشرج من طول نحيبه، وصار ينهنه في خفوتٍ يؤوسٍ من رحمة ناس غلاظٍ تحجرت قلوبهم.. من بعد ما خلعوا رداء الإنسانية، وتواروا

خلف همومهم الشخصية، لا يسمع لصراخها الخافت حتى خمدت أنفاس الجسد الطاهر، وصعدت روحها لبارئها تشكو هذا الظلم، وتلك القسوة التي غلفت قلب الإنسان وطغت على كل مشاعره، ونزعت هيئته الآدمية، وتخلت عنه ملامحه الطيبة وأصبح ممسوخاً يحيا بين الناس !!

فلترتاحي يا ذات الشهرين، وكوني عصفوراً في الجنة يغرد بين الأغصان . ودعي هذا المسخ يغزوه الخزي حينا يعلم هو بمصيرك، ويعرف سر صراخك المتواصل، ولم تمتد يد الرحمة لتنقذك، وتعطيك الحق في أن تحيي بينهم !! لم يدفعهم صراخك المتواصل أن يلبوا إغاثتك، بل دفعتهم رائحة الجثة العفنة بأن يتصلوا بالشرطة !! كي تكشف هذا السر !! ولكن بعد فوات الوقت ؟!! بعد فوات الوقت .

فقد هدأ صراخك من ساعتين، وصمتت لهفتك المهووسة ليدٍ تحن إليك وتنقذك من تلك الوحدة القاتلة المفروضة عليك، ومن هذا الجوع الفتاك الذي فتك بحياتك !! فلترتاحي يا ذات الشهرين ولتنعمي بالراحة في حضن الأم المذبوحة، ولتسبل يد الشرطي عينيك الجاحظتين المنطبعتين فيهما آخر نظرة أطلت من عينيك على تلك الغابة، تعلن للعالم أن الرحمة قد نزعت من قلب الإنسان !!

القاهرة في الخميس ٥ / ٣ /٢..٩